Türkiye Diyanet Vakfı
İslâm Ansiklopedisi
Kütüphanesi

دِراسَات فِي التَّصَوُّف الإسلامي

شَخصِيَّات ومَذاهِب

تأليف
دكتور محمد جلال شرف
أستاذ الفلسفة الإسلامية
بجامعتي الاسكندرية وبيروت العربية

Türkiye Diyanet Vakfı
İslâm Ansiklopedisi
Kütüphanesi
Kayıt 7045
Tasnif No. : 297.7 SER.D

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت - ص.ب ١١-٧٤٩

حقوق الطبع محفوظة

بيروت

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت - لبنان - ص.ب: ١١-٧٤٩

الإهداء

إلى

أولياء الله وجنده الذين

لا خوف عليهم ولا هم يحزنون

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

ينقسم الفكر الإسلامي طبقاً للأبحاث الغنية الخصيبة لهذا الفكر في شتى عقود هذا القرن إلى أقسام أربعة:

١ ــ فلسفة فلاسفة الإسلام، وهي ما نسميه بإسم «الفلسفة المشائية الإسلامية» ويمثلها في العالم الإسلامي كل من: الكندي والفارابي وابن سينا في المشرق العربي، وابن رشد وابن باجة وابن طفيل في المغرب العربي.

٢ ــ ثم فلسفة الكلام، أو ما ندعوه «علم التوحيد» أو «علم أصول الدين».

٣ ــ وثالثاً: فلسفة أصول الفقه، التي أضافته المدرسة الإسلامية الحديثة في أواخر العقد الثالث من القرن العشرين.

٤ ــ وأخيراً، التصوف الإسلامي بأنواعه المختلفة الذي أضيف إلى هذا الإطار من الفكر الإسلامي في العقود الأولى من هذا القرن أيضاً.

وقد نالت الفروع الثلاثة الأولى من اهتمام الباحثين ورواد البحث الحضاري من أساتذة الجامعات وغيرهم الشيء الكثير. فأظهروا لنا بوضوح المصادر الأولى المختلفة والمتعددة لها فعلوا هذا، على اختلاف مشاربهم واتجاهاتهم. أما الفلسفة الإسلامية المشائية أو فلسفة متفلسفة الإسلام، فقد نالت الجانب الأكبر من اهتمام الباحثين ـ مسلمين أو أوروبيين ـ فتعددت المباحث فيها، وفي تلمس مآخذها فبينوا لنا تطور المشائية والأفلاطونية ممتزجتين

مع الأفلاطونية المحدثة، في كتابات هؤلاء المتفلسفة. وليس من الصعوبة بمكان، إقتناص هذا المزيج المختلط الذي كون فلسفة الفارابي وابن سينا مثلاً، أو تصوير فلسفة ابن رشد المشائية الأرسطية البحتة، ومحاولة عودته للأرسطاليسية ومقدار نجاحه في هذه المحاولة. إن مصادر هؤلاء الفلاسفة ـ على اختلاف مزاج هؤلاء الفلاسفة ـ ليس بالعسير على عين الباحث النافذة المقارنة، التوصل إليها. وقد كان كتابي «الله والعالم والإنسان في الفكر الإسلامي» هو إحدى هذه المحاولات لبيان أصالة هذه الفلسفة المشائية في العالم الإسلامي وكيف تصدى لها حجة الإسلام «أبو حامد الغزالي» وأبان تهافتها واتهم أصحابها وبخاصة إبن سينا شيخ المشائيين ورئيسهم، بالكفر والزندقة والإلحاد. فكان للغزالي الفضل الأولى في توضيح هذه الفلسفة الغريبة على الإسلام مما كان له الأثر الأكبر في توجيه الفلسفة بعده توجيهاً خاصاً، فقد حاول معظم الفلاسفة، إشراقيين من أمثال «أبو البركات البغدادي»، وابن باجه، وإبن طفيل، والسهروردي المقتول، أو متكلمين من أمثال: ابن تيمية وابن قيم الجوزية، وخراجه زاده، حاول هؤلاء جميعاً التخلص من الأثر الفلسفي الخارجي وبخاصة الفلسفة الإغريقية، فجاءت محاولتهم في التوفيق بين الفلسفة والدين أكثر نجاحاً من محاولة الفارابي وإبن سينا. وحتى تكتمل صورة التفكير الفلسفي الإسلامي، فقد عرضنا للجانب الإشراقي في كتاب سميناه «المذهب الإشراقي بين الفلسفة والدين في الفكر الإسلامي»، وهو يوضح لنا موقف كل من «أبي البركات البغدادي، وابن باجة، وابن طفيل، والسهروردي المقتول» من المشكلات الفلسفية الرئيسية وهي «العالم، والنفس، والله».

أما «علم الكلام» فقد وضحت معالمه أيضاً، وإن اختلفت أنظار الباحثين فيه. فبينما انبرى البعض من الباحثين يحاولون إثبات أصالته وانبثاقه عن روح إسلامي، يذهب البعض الآخر إلى ربطه باللاهوت المسيحي أو باليهودية. إن الكلمة الأخيرة لم تلق فيه بعد، ولكننا نستطيع أن نتتبع تاريخ رجاله وتاريخ

أفكاره ونظرياته، سواء من الناحية الذاتية أو الناحية الموضوعية، بما قدمه لنا الباحثون من نماذج رائعة لدراسته.

وما لبثت فلسفة أصول الفقه أن تناولها عدد آخر من الباحثين المسلمين، فقدموا لنا فيها الأبحاث العميقة، وأثبتوا لنا تطور هذا العلم إلى منهج علمي وفلسفي دقيق. وهو منهج خاص بالمسلمين والإسلام، يدل على حقيقة الشريعة الإسلامية ويعبر عن طبيعتها تعبيراً صادقاً، وهو منهج نابع من الحاجة العملية والإتجاهات الإنسانية في الديانة الإسلامية ولهذا نجد علماء الأصول والأصوليين المسلمين يقفون بمنهجهم ومنطقهم ضد المنطق اليوناني عامة والمنطق الأرسطي خاصة، مؤكدين أن اللغة اليونانية تختلف كثيراً عن اللغة العربية، وأن ميتافيزيقا أرسطو تختلف أشد الإختلاف عن ميتافيزيقا القرآن. ولذا نبع منطق المسلمين من القرآن والحديث، من الكتاب والسنة، فجاء موافقاً لحاجات المسلمين.

وأما التصوف، فإن الأمر يختلف فيه تماماً. فبداية الطريق فيه غير واضحة، كما هو معروف عن الفروع الثلاثة السابقة ولا شك في أن التصوف ـ كعلم ـ حاول أن يحل محل الفلسفة وعلم الكلام وأصول الفقه، بل حاول أن يحل محل الفقه نفسه. وذلك باعتبار أن الفقه يختص بالعلم الظاهر، أما التصوف فهو يختص بالعلم الباطن دون إغفال للجانب الظاهر في الشريعة. وحاول الصوفية المسلمون أن يقوم علم التصوف على أسس عملية أخلاقية. فهو يقوم على دراسة النفس، بل يعتبر بعض المؤرخين للتصوف أنه هو علم النفس، أو علم آفات النفس ولا شك في أن الجانب العملي الأخلاقي نجد له أمثلة واضحة وممتازة في الصدر الإسلامي الأول. فلقد كان الرسول والصحابة والتابعون وما تنطوي عليه حياتهم الروحية من أقوال وأفعال، تعتبر منبعاً أصيلاً ومصدراً حقيقياً لهذا الجانب العملي الأخلاقي في التصوف الإسلامي. كما يمتاز التصوف أيضاً بنوع خاص من المعرفة لا نجدها في الأنواع الأخرى من الفكر الإنساني والإسلامي.

فالمعرفة الصوفية هي معرفة ذوقية كشفية إلهامية باطنية تأتي القلب مباشرة دون إعمال العقل ودون استخدام الحواس. فهي إذن معرفة خاصة، معرفة فردية، ونشاط روحي خاص بكل صوفي. ولذلك فليس من الضروري أن تتشابه البدايات والنهايات عند الصوفية. بل أن الصوفي هو «إبن وقته» ترد عليه الأحوال في وقت غير تلك التي ترد عليه في وقت آخر. وذلك لأن الأحوال هبة من الله وفضل يعطيه من يشاء من خاصة عباده الذين هم المصطفون الأخيار. والصوفية أنفسهم يعترفون بذلك كله، بل يعترفون أيضاً أنهم استمدوا طريقهم الروحي من الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح، وأن لهم تأويلاتهم الخاصة، وموقفهم المنفرد الذي اختصوا به دون غيرهم من الفرق الأخرى.

فإذا كان ذلك كذلك، فلا معنى إذن لمحاولات علماء الإستشراق في إرجاع العناصر الجوهرية لتصوف إسلامي بحت، إلى مصادر مختلفة غير إسلامية. ولا يخفى علينا وعلى الباحثين المنصفين للفكر الإسلامي الغرض الحقيقي من وراء اتجاهاتهم هذه وكان هذا الكتاب الذي أقدمه للقارىء العزيز وهو «التصوف الإسلامي في مدرسة بغداد» بمثابة دليل قاطع على خطأ موقف المستشرقين من ظاهرة التصوف الإسلامي فحين نطالع الفصل الأول من الباب الأول الذي يتحدث عن منزلة التصوف كعلم في الفكر الإسلامي، نلاحظ مباشرة إجماع مؤرخي التصوف والصوفية أنفسهم على أن هذا العلم قد بنى قواعده على أصول صحيحة وقواعد متينة من الكتاب والسنة، وأن علمهم مشتق من الصفاء، وهي سمة خاصة بالصوفية دون غيرهم من طوائف المسلمين، ولهم طريقة خاصة في العبادة. وأصل هذه الطريقة هي العكوف على العبادة والإنقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والإنفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، وكان ذلك عاماً في الصحابة والسيف. وقد اختص الصوفية بالأحوال والمقامات التي تعد نتيجة لمجاهدة الصوفي وعبادته القائمة على محاسبة النفس الأفعال.

وسوف يجد القارىء في هذا الكتاب ما يحتاج إليه ويشتاق إليه من معرفة خصائص الحياة الروحية، والطريق إلى الله في التصوف الإسلامي الذي اشتهر به صوفية مدرسة بغداد. فقد اختص كل صوفي في هذه المدرسة بميزة معينة إشتهر بها بين أقرانه من الصوفية وأرجو أن يضيف هذا الكتاب إلى المكتبة العربية والإسلامية معرفة جديدة عن أهم فروع الفكر الإسلامي ألا وهو «التصوف» الذي يشتاق إلى معرفته، بل وممارسة طريقته معظم المنتسبين إلى حياة الزهد والتقشف والذين سمت نفوسهم وطهرت قلوبهم من شواغل الحياة المادية التي تصرف الإنسان وتبعده عن الطريق القويم، طريق الروح والقلب ولا يعني هذا مطلقاً أن تعاليم التصوف الإسلامي تدعو إلى الرهبانية بمعناها المسيحي. بل هي رهبانية من نوع خاص تتفق مع شريعة الإسلام، وهي شريعة الدنيا والدين فهي رهبانية أوضحها الرسول العظيم وهي الجهاد في سبيل الله.

والله ولي التوفيق